

٢ - الف - لاسفة

للمؤستاذ عطفة السبخ

للفيلسوف خواص من حيث التكوين النفسى نجملها فيما يأتى :

١ - الفيلسوف لا يتوصل لمعرفة الحقائق إلا بالآفكار المجردة والعقل الحر، فهو لا يثق بالحواس ولا بالمحسّات، ولذلك ترى كل بحث فلسفى استطاع العلماء إخضاعه للآلات والحواس والقوانين قد طرحه الفلاسفة، لأنهم لا يهتمون إلا بالمعقولات المحض، فكما أن العلماء لا يشتغلون إلا بما يستطيعون إثباته حسياً أو بدهياً، لذلك ترى الفلاسفة قد تبرءوا من كل نوع من أنواع المعلومات التى خضعت للضوابط. ومن هنا ترى كثيراً من البحوث الفلسفية يصبح بعد زمن ما نظريات علمية، تدخل تحت اسم علم من العلوم تاركة آباءها الأولين من الفلاسفة، كأنما الفلاسفة هم الرواد والعلماء هم المستعمرون.

٢ - العاطفة عند الفيلسوف تكاد تكون معدومة، فهو لا يسير إلا برائد من تفكيره؛ ولذلك لا يتقيد الفلاسفة بالتقاليد القومية. ولا بالعادات الشائعة ولا بما تواضع عليه الناس وأقره العرف، فإذا كان الناس يستوحون البيئة والوراثة والتقاليد، فإن الفلاسفة لا يتقيدون إلا بوحى العقل ودافع الفكر وهم عبيد ما اعتقدوه ينفذونه وياخذون به من خير هوادة، مهما لاقوا فى سهيل ذلك من الصعاب الداخلية والخارجية، فالفيلسوف كما قال إميل فاكه

(يسبر الأغوار في طلب الحقيقة ، دون أن يبالي بما يعترض سبيله من مصاعب لأنه لا يرتاع من اصطدامه بالفجائع في قراراتها ، أو من انتهائه إلى لا شيء)
 أو كما قال نيتشه (لا يكفي الطالب الحقيقة أن يكون مخلصا في قصده ، بل عليه أن يترصده إخلاصه ، ويقف موقف المتشكك فيه ؛ لأن عاشق الحقيقة يهيم بها لذاتها ، لا مجازاة لأهوائه ، حتى ولو كان في ذلك مخالفا لعقيدته ، فإذا هو اعترضته فكرة ناقضت مبدأه ، وجب عليه أن يقف عندها فلا يتردد من الأخذ بها ؛ عليك أن تصلى نفسك كل يوم حربا ، وليس لك أن تبالي بما تجنيه من نصر أو تجنى عليك جهودك من اندحار ، فإن ذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك) ويقول أبو نصر الفارابي (يجب على الفيلسوف أن يكون قد تقدم وأصلح الأخلاق من نفسه الشهوانية ، كما تكون شهوته للحق فقط لا للذة ، وأصلح مع ذلك قوة النفس الناطقة كما يكون ذا إرادة صحيحة) ومن هذا كانت الفلسفة عدوا للشعر ، وكان تعاطيها مفسدا للملكة الشعرية ، ولا سيما في الوجدانيات (إذ قد تكون مقبولة في الشعر الاجتماعي) هذا الهيام بالحق لذات الحق ؛ والتخلص من كل مواروث شائع — هو السبب في أن الفلاسفة يوصفون بالشذوذ في كل عصر ، فكيف يشابه الجمهور قوم لا يخضعون حتى للغرائز المشهورة بسطوتها ، فيحاولون إخضاعها لفكرهم ؟ .

٣ — الفيلسوف معتد بنفسه ، وليس معنى هذا أنه مغرور ، فإن الغرور والفتنة لا يجتمعان ، بل المراد أن الفيلسوف يشعر بشخصيته ، وأنه فرد مستقل عن سائر الأفراد ، وأن له عقلا من حقه عليه أن يستخدمه ، ويسير في ضوئه ويترك أضواء الآخرين ، وأنه غير مجبر على ترك تجاربه والأخذ بتجارب سواه ؛ فاعتماده بنفسه إنما هو بالنسبة إلى غيره من الادميين ، لا بالنسبة إلى الحقيقة ذاتها ، يقول نيوتن (إن العلم بحر ونحن لانزال نلعب على شاطئه) ويقول سقراط (لا فرق بيني وبين الناس ، إلا أنني جاهل وأشعر بجهلي ، وهم

جهلاء ولا يعلمون أنهم جهلاء) وقال حكيم عربي (لا يزال المرء عالما ما شعر بجهله ، فإذا ظن أنه علم فقد جهل) والاعتداد بالنفس هو الذي يدفع الفيلسوف إلى التفكير في كل شيء ، ويجعل عقله في حركة مستمرة ، فيأبى إلى أن يسير في طريق جديدة غير مألوفة ، مهما كلفه ذلك من المشقات ، بل إنه يجد فيها بصادفه من المشقات لذة ، كلذة سعى الحبيب إلى بيت حبيبه ، تكتنفه الظلماء ويترصده الرقباء .

٤ — الفيلسوف لا يبحث إلا في المبادئ الأولى للمعرفة والنظريات الكلية ، أما تفاصيل العلوم الخاصة فهو لا يهتم بها ؛ لأنه مشغول بالوصول إلى الحقيقة الكبرى ، فهو إذا آمن بكلية من الكليات ، اتخذها مقدمة للوصول إلى حقيقة فوقها ، ولذلك عرف ديكرت الفلسفة ، بأنها معرفة المبادئ الأولى ولذلك كانت الفلسفة لا تتأق إلا لذوى الذكاء الشديد ، فقد قال الفريد بنبيه (إن الذكاء إنما يظهر في التصرفات التي تحتاج إلى بناء وتركيب) فعقلية الفيلسوف ممتازة بقوة الربط بعد حسن التعليل ، وبقوة التجنيس والتصنيف بعد كثرة الجمع ، وإذا كان غير الفيلسوف وعاء لعدم ، فالفيلسوف لا يعرف إلا علما واحدا ، ولكنه حاز للمبادئ الأساسية لكل العلوم ، فأرسطو هو المعلم الأول للفلاسفة والعلماء ، وما يؤسف له أن هذا المعنى للفيلسوف قد تغير في هذا العصر ، الذي سادته روح التخصص والتقسيم ، فأصبح الفيلسوف يسعى إلى معرفة حقائق جزئية في علم خاص ، فهذا الفيلسوف في الرياضة ، وذلك في التاريخ ، وذلك في الطبيعة .. الخ ، وإنما هذه هي مهمة العلماء لا الفلاسفة ، لأن الفيلسوف يجب أن يكون مشغولا بحقيقة واحدة ، تدور في ذهنه من حولها كل النظريات ، فالفيلسوف قائد والعلماء جنود ، وإذا نسي القائد مركزه العام وانهمك في ناحية خاصة ، ضل الجيش كله ، وخسر خسرانا مبينا ، فهذا التخصص في الفلسفة الذي أودى بالمثل العليا في هذا العصر ، وحرر مناظير أمثال سقراط

وأرسطو وأفلاطون ، الذين لانزال عيالا عليهم في مناهج الفلسفة ومبادئها ، وإذا كان الفيلسوف المختص يبتكر نظريات أكثر ، فإن المعارف الإنسانية مهما كثرت لن تستطيع حل المشكلة الكبرى التي فكر من أجلها الإنسان . مادامت مقطعة الأوصال غير متساوية ! فالفلسفة من شأنها أن تأخذ بزمام العلوم ، وتوجهها وتفتح أمامها الآفاق ، وأن تخدمها العلوم لا أن تصبح هي خادمة لها .

هـ — الفيلسوف يشعر في أول حياته العقلية بنقص عن الناس في التفكير ، وذلك لأنه لا يشعر بالفهم إلا إذا كان البرهان دقيق المنطق ، والعلل والمعلولات مستقيمة ، فهو باستعداده الفطري لا يهضم الخطأ ، وأما غيره من الناس فيقتنع بالفهم السطحي ، ولا يقوى فكره على كشف المغالطات الكامنة في المسائل ، وعند ذلك يرى الفيلسوف الصغير جميع من حوله مرتاحين للسألة ، مدعين فهمها ، ثم ينظر هو إلى نفسه فيجد الفهم مستحصيا عليه ، والمعاني قلقة في ذهنه ولحسن ظنه بالناس إذ ذاك ، يسيء الظن بنفسه ، ومن عناية الله به وتوفيقه له أن يذهب هذا المذهب ، لأن ظمأه إلى الحقيقة من جهة ، وشعوره بالنقص من ناحية أخرى ، يدفعانه إلى إدمان النظر ، وطول السهر ، واحتمال الضجر ، حتى يصل إلى مراتب رفيعة في التفكير ، ومن كرسية العالی ينظر حوله إلى الناس ومعارفهم ودعواهم نظرة شك وارتباب . فيطرح كل ماتعلمه منهم على الغربال ، ولا يثق إلا بتفكيره هو ، ويأخذ على عاتقه مهمة المعلم لهؤلاء الضالين ، ليبين لهم وهمهم ، ويصل بهم إلى الصواب . كما كان يفعل سقراط ، وإنك لا تجد عبقريا إلا كان يشعر بالنقص وهو صـغير ؛ فكل فيلسوف لابد أن يمر بطور الاستضعاف ، ثم بطور الاعتداد بالنفس ، ثم بطور الشك في كل شيء ، ولذلك مامن فيلسوف إلا اتهم بالإلحاد ؛ فالعلة التي حوكم من أجلها سقراط ، لازمت جميع الفلاسفة ، غير أن هناك فرقا بين شك الفلاسفة وشك السفسطائيين

فالفيلسوف يشك ليصل إلى الحق من طريق قوينة ، وأما السفسطائي فغاياته المغالطة والشك لذات الشك .

٦ — أغلب معلومات الفيلسوف ذاتية ، أعنى أنه وصل إليها بمجهوده هو ولذلك ترى لكل فيلسوف شخصية تميزه كل التميز ، حتى لو اشترك فيلسوفان في رأى واحد ، لبس كل معنى من نفس صاحبه ما يخلع عنه مظهر النقل والأخذ فأعدى أعداء الفلسفة التقليد والتطفل ، وهو إذا تعرض لأراء الناس ، فإنما يتعرض للوازنة والتقد ، فكل ما عرف الفيلسوف من المعلومات عن غيره ليس له في نفسه إلا قيمة المشجذ بالنسبة إلى السكين ، وإذا أعجب الفيلسوف برأى لغيره ، أو وجد ، يحل مشكلة عجز هو عن حلها ، نقل لبناته وأضاف بها حجرة إلى قصر معرفته ، وأعطاه صبغته الخاصة وطريقته في البناء ، بحيث لا تبدو غريبة عنه ، بل ممتزجة ببيته كل الامتزاج ، ولذلك يمتاز الفلاسفة عن غيرهم بقوة الإيمان بأرائهم ، والتفانى في سبيلها كما يتفانى الأب في حب أبنائه ، ولذلك ترى رغبة الفلاسفة في التفكير المباشر أكثر من رغبتهم في قراءة آراء غيرهم ؛ بل إن الفيلسوف لا يقرأ الكتب إلا للترفيه عن نفسه عندما يرضيها القراءة في كتاب الكون الأعظم ؛ فالفيلسوف لا واسطة بينه وبين أستاذه الكون ، يترجم ما يوحى إليه منه ، كما يبلغ الرسول الوحي عن ربه .

٧ — الفيلسوف حاد الذهن ، قوى الملاحظة ، واسع الفكر ، ولذلك ينقل ذهنه كل ما يرى ، ويضبطه ضبطاً تاماً ، فهو من هذه الناحية كالشاعر ، إلا أنه لا يقف عند حد الامتزاج بالكون ، بل يرقى بنفسه عن ظواهره ليقف منه موقف التاجر من سلعته ، والراعى من شويهاته ، فالشعر هو الخطوة الأولى للفلسفة في الأفراد والأمم ، ولذلك كان أكثر الفلاسفة شعراء ، كما قال مؤرخو الفلسفة « إن شعراء اليونان الأوائل كهوميروس وهزiod ومزمم الأزميري وأرشيلوك ... الخ هم الذين مهدوا الطريق للفلسفة اليونانية ولا سيما بعد أن بدأ

الشعراء الحكماء يدونون خواطرهم وتأملاتهم ، والشعر الاجتماعي وسط بين الفلسفة والشعر ، كالشعر الأوروبي الحديث

وقد حدث بعض المتصوفين قائلًا: إنه تدرج من الشعر إلى الفلسفة ومن الفلسفة إلى التصوف ، ويحسن في هذه النقطة الإشارة إلى أن عقل الفيلسوف لا يشيخ فهو في اتساع ورقى باستمرار ، وكأنه المعنى بقول الإمام علي « كل إناء يضيق بما يوضع فيه ، إلا إناء العلم ، فإنه يتسع » فعقول الناس كأجسامهم ، تخضع لقانون الصعود ثم الهبوط ، إلا عقول الفلاسفة ، فهي في صعود مستمر ، من حيث الدنو إلى الحقيقة ، كلما طلع على الفيلسوف يوم وجد نفسه في أفق أعلى من سابقه ، كطائر كلما على نبت له ريش جديد . يساعده على العلو ، وكذلك يتصل بهذه النقطة سرعة فهم الفلاسفة لأراء غيرهم ، لأن كثرة تجوالهم الفكري يجعل كل نظرية لغيرهم قد مرت عليهم ، فيفهمون مراد غيرهم من الإشارة الأولى ، ويكرهون الإطناب في الكتابة أو النقاش .

٨ - أسلوب الفلاسفة غامض لا لغموض المعاني واستغلاقها عليهم ، ولا لما ذهب إليه الغرابي (من أنهم يتعمدون ذلك لثلاثة أشياء ١- استبراء طبيعة المتعلم ، هل يصلح للتعليم أم لا ؟ ٢- لئلا تبذل الفلسفة لجميع الناس ، بل لمن يستحقها فقط ٣- لترويض الفكر بالتعب في الطلب) ، كلا بل لأنهم يقيسون فهم الناس بفهمهم ، وقد تعودوا أن تكفيهم الإشارة ، ولأن ما يتناولونه معقولات مجردة من الحس والزخرفة ، ولأن معلومات الفيلسوف قد تطورت وبعدت عن معقول الناس ، لأنه بناء مستمر في البعد عن الأساس والتحليق إلى أعلى ، فالذي فكر فيه الفيلسوف طويلا وأصبح عنده بديهية ، يضح أن يتخذها مقدمة في برهانه وفرضه في إثباته ، هي نفسها لا تزال شيئا جديدا عند الناس يحتاج إلى الجدل ، فكانما أصبح بين أفكار الناس وأفكاره حلقة مفقودة ومن هنا مل الناس قراءة الفلسفة وأبغضوا الفلاسفة ، وأصبحت كتب الفلسفة

خاصة بالفلاسفة ، مع أن العلم والشعر وبقية الفنون للجميع ، ألا ترى أن تقدير الفيسوف والانتفاع بآرائه يحدث بعد زمن طويل .

٩ — الفيلسوف سابق لزمانه ، بل إن الفلاسفة غير مقيدين بزمان ، فما دامت الموضوعات التي يعالجها الفيلسوف عقلية محضا ، فإنه لا فرق بين فلسفة سقراط من حيث الكيف ، وبين فلسفة يكون ونبتشة وشوبنهاور ، ومهما اختلفت الموضوعات والنظريات فهي من حيث العلو والجدوة متشابهة ، لا تبلى ولا تهرم ، بعكس النظريات العلمية التي يهدم بعضها بعضا كل يوم ، ولذلك لم يخطئ الفلاسفة إلا فيما تناولوه من الموضوعات العلمية ، فأراء أرسطو في الجغرافيا يسخر منها الآن صغار التلاميذ ، ولكن آراءه الفلسفية المجردة لا تزال لها قيمتها ، بل لا تزال أساس الفلسفة إلى اليوم .

١٠ — الفلسفة بنت الألم ، فهو أكبر دافع إلى التفلسف ، وقد يكون هذا الألم شخصا منشؤه الأسرة أو الحب أو الصحة أو المال .. الخ وقد يكون قوميا منشؤه تألم المرء لحال قوم ، وقد يكون منشأ الألم البيئة الطبيعية ، وعدم انسجامها مع مزاج الشخص ، وكذلك عصمت هذه الديار عن أن تنجب فلاسفة ، وانعدم المزاج الفلسفي من المصيريين ، مما كان له أسوأ الأثر في سيرهم ، فأصبحوا متشابهين في آمالهم المادية ، كأنهم نسخ مطبوعة لكتاب واحد ، فلو تقصيت عقولهم لما شعرت بشخصيات مختلفة ، والسبب في ذلك خلو هذه الديار من دواعي الحزن والألم ، فالخيرات كثيرة ، والجو معتدل والخضوع للحاكم كان قد وقر في أذهانهم منذ آلاف السنين ، فهم عبيد لا يتبرمون من أفعاله ، فاحمى الألم من الأشخاص وضاق الفكر ، وانعدم التفلسف . ولعل هذه النهضة الأخيرة . التي أشعرتنا بعيوبنا ، وأنارت عقولنا وألفت بين قلوبنا ، وذكرتنا بماضينا فتألمنا لحالنا — تساعدنا على تكوين طبقة

من الفلاسفة ، يسعون وراء المثل العليا ، وتشرق عليهم الأنوار المقدسة ،
ويسرون في وسط هذا المجتمع الراكد ، بشعلهم السماوية ، مناضلين بإيمان
لا يتزعزع عن الحق ، ليصلحوا من نفوس هذه الأمة ما أفسده الدهر ، ويمنعوها
من الركون إلى كل موروث رث ، ويحاربوا الاطمئنان إلى معلومات كلها
خرافات وترهات ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

عطية السبح
معلومات القبة